جنكيزخان

مقدمة

السر الغامض

قبل سبعة عصور ونيف دوخ رجل من الرجال كل الارض تقريبا، فجعل من نفسه سيدا على نصف العالم المعلوم، والقى رعبا فى قلوب البشر دام عصورا.

لقبه الناس فى حياته القابا عديدة كالسفاح القادر، وغضب الله القاهر، والمحارب الحق، وسيد العروش والتوج. واننا نعرفه أحسن المعرفة باسم (جنكيزخان). انه كان اهلا لكل القابه، لا كغيره من اكثر القادة الرجال. ونحن الاميريكيين قد نشأنا فى جو مفعم بالعنعنات الاوربية ، التى علمتنا باسماء الرجال العظام التى تبدأ بالاسكندر المقدونى وتنتقل الى القياصرة فتنتهى عند (نابليون). ولكن جنكيزخان كان فاتحا ذا شخصية بارزة تبز شخصية اى ممثل آخر اشتهر ببطولته على مسرح الغرب.

ويصعب علينا فى الحقيقة قياسه بالمقاييس الاعتيادية، فأنه اذا سار وقبائله قطع المسافات الشاسعة البعيدة الغور طولا وعرضا، لا الاميال، واذا حل فى المدن قلب عاليها اسفلها، واذا جاء الانهر غير مجاريها، واذا جاب الصحارى القاحلة اكتظت بالمنهزمين والاموات، واذا اجتاز البلاد المسكونة وبعد عنها لم يدع حيا فيها الا الذئاب والكواسر.

ان هذه الابادة، وهذا القضاء على حياة الانسان أمر يحير التصور العصرى ويربكه ، دون الالتفات الى الاراء التى ولدتها الحرب الاوربية المتصرمة. وجنكيزخان رئيس رحالة اندفع من صحراء (كوبى) وشن الحرب على شعوب الارض المتمدنة، وانتصر.

ولادراك مغزى هذا الامر، علينا ان نرجع الى الوراء الى القرن الثالث عشر لنجد ان المسلمين آمنوا بأن طغيانا دنيويا كهذا، لا يتم الا بارادة آلهية مقدرة. والظاهر ان الساعة قد اقتربت. ولكن المؤرخ يصرخ ويقول «كلا، ما كان الاسلام فى مثل تلك الظروف عرضة لغارات النصارى والمغول»

وبعد ممات جنكيزخان بجيل واحد، اخذ الفزع يدب فى كل البلاد المسيحية عندما امست اوربا الغربية موطئا لسنابك فرسان المغول المرعبين. وقد فر (بوله س لاس) ملك بولونيا و (به لا) ملك هنغاريا من ميادين الحرب، ومات (هانرى) دوق سيلزيا فى (ليه نيتز) هو وفرسانه التوتونيون بسهام المغول، وكان نصيبه نصيب (جورج) دوق روسيا الاكبر. وقد صرخت يومئذ (بلانش) الشقراء ملكة (كاستيل) مستغيثة بالقديس (لويس) قائلة «اين انت ؟ ياولدى.»

لقد كتب الرجل الرزين (فريدريق الثانى) ملك المانيا الى (هانرى الثالث) ملك انكلترا قائلا : ارى ان «التاتار» لم يكونوا الا عقاب الله النازل فى البلاد النصرانية جزاء لذنوبها. وما التاتار الا سليلو اسباط بنى اسرائيل العشرة التائهين الذين عبدوا العجل الذهبى فنفاهم الله لعبادتهم الاصنام الى مفازات آسيا.

وقد ابدى (روجه ربه كن) الرجل الطيب رأيه فى المغول فقال «انهم الجنود المناوأون للنصرانية جاؤا ليحصدوا البقية الباقية منها.»

ورسخ هذا الاعتقاد بنبوءة غريب اسند خطأ الى القديس (جيروم) مفادها انه فى يوم مناوأة النصرانية سيظهر قوم من «الاتراك» من ارض يأجوج ومأجوج فيما وراء جبال آسيا، وهو قوم دنس غير طاهر، لا يشرب الخمرة ولا يأكل الملح والقمح، فينزل الكوارث والمصائب فى العالم اجمع.

دعا البابا مجلس الليونيين ليتخذ من قراراته ما يمنع طغيان المغول. فاوفد الاخ يوحنا الـ(بلانوكاربينى)، القوى الشكيمة، الكريم الخلال؛ اخا نظام الاقليسات مندوبا عن السدة البابوية الى المغول بقرار جاء فيه «اننا خشينا وقوع خطرهم القريب الاكيد على كنيسة الله»

واقيمت الصلوات فى الكنائس اتقاء شر المغول.

* * *

ولو كان تدمير جنكيزخان وحيلولته دون رقى الانسان هما كل ما فى قصته، لما كان جنكيزخان اكثر من (عطيل) آخر او (آلاريك) ثان ـ مجازف بارع لا يقتحم، يجول وليس له من غرض؛ ولكن البلية انه كان المحارب الحق وسيد العروش والتيجان.

وهنا نجابه وجها لوجه ذلك السر الغامض الذى يكتنف نفسية جنكيزخان. وذلك إن هذا الرحالة الذى كان يصطاد الضوارى، ويرعى الاغنام، استطاع ان يحطم ويبيد جيوش ثلاث امبراطوريات. الا ان هذا الوحشى الذى لم يعش بمدينة ما، وهو امى لم يتعلم الكتابة والقراءة، وضع اسس قوانين لخمسين شعب من الشعوب.

ومن ناحية الدهاء العسكرى، نرى ان نابليون هو المع الدهاة الاوربيين. الا اننا لا ننسى انه تخلى عن جيش كامل فى مصر، وتركه لتصاريف القدر، كما ترك بقية جيش آخر فى ثلوج روسيا، واخيرا حار فى أمره وانخذل فى كارثة (واترلو). لقد هدموا امبراطوريته على مسمع منه، ومزقوا شريعته وقوانينه، وحرموا ولده من الارث، وكل ذلك قبل ان يموت. لقد محوا عن المسرح ما مجد به نابولون. وقد خذلوه وابعدوه عن التمثيل.

والضرورة تدعونا الى الرجوع الى الاسكندر المقدونى؛ ذلك الفتى المغامر المنتصر، لنعثر على داهية فاتح يناوئ جنكيزخان ـ والاسكندر المتأله سار مع كراديسه نحو مشارق الشمس حاملا نعم الثقافة الاغريقية. وكلاهما مات والانتصارات تغمرهما، وكلاهما خالدان اليوم فى قصص آسيا المورونة.

ولكن بعد موتهما فقط أمست تدابيرهما التى اتخذاها فى تباين شديد. اذ بعد برهة وجيزة أخذ قادة الاسكندر يتناحرون فيما بينهم من اجل الممالك التى اجبروا ابنه على الهروب والتخلى عنها.

اما جنكيزخان فكان المصيب كل الاصابة فى جعل نفسه سيدا على البلاد من (ارمينيا) الى (كوريا) ومن (تيبهت) الى الـ (فولغـا) لكى يرثه ابنه فى ملكه دون معارضة او ممانعة، وفى الوقت الذى كان حفيده (كوبى لاى خان) لا يزال يحكم نصف العالم.

اسست هذه الامبراطورية من العدم، ومؤسسوها وحوش حار المؤرخون فى امرهم. فأحدث تاريخ عصرى فى عهد جنكيزخان دونه الرجال البحاثون فى انكلترا، يعترف بان العامل فى ذلك العهد وتلك الامبراطورية انما هو عامل لا يمكن الوصول اليه. والعالم الحكيم يقف متحيرا عند العبارة التالية. «واخيرا اننا لا نتمكن من القول فى شخصية جنكيزخان المفزعة اكثر مما نقوله فى عبقرية شكسبير».

لقد تظافرت الكثير من الامور فى اخفاء شخصية جنكيزخان عنا. واول هذه الامور هى ان المغول لم يعرفوا الكتابة، ولم يهتموا لتعلمها. وهذا مما جعلنا لا نجد حوادث ايامه الا فى شتـات مخطوطات الاويغور والصينيين والايرانيين والارمن. ولم تترجم اساطير المغول لـ(صانانغ ـ سهتزن) (١) ترجمة دقيقة الا أخيرا. هذا وان اذكى مؤرخى هذا المغولى العظيم كانوا من اعدائه، وهذا عامل يجب علينا ان لا ننساه عند الحكم له او عليه، عند اطلاعنا على آراء رجال من قوم لا صلة لهم به. زد على ذلك ان ادراك هؤلاء للعالم خارج بلادهم، كان ادراكا قاتما مكفهرا، كما كان عليه الاوروبيون فى العصر الثالث عشر.

انهم نظروا الى المغول، كقوم انتشر من المجاهل على حين غرة. كما وشعروا بالصدمة العنيفة التى انزلتها بهم قبائل المغول، وشاهدوها تكتسحهم مارة الى بلاد اخرى لاعلم لهم بها. ونرى ان احد المسلمين اوجز ما عرفه عن المغول ايجـازا مؤلما بهذه الكلمـات: «جـاءوا فهدموا وذبحوا وحملوا الاسلاب ورحلوا».

كانت الصعوبة عظيمة جدا فى قراءة تلك المراجع العديدة ومقارنتها مع بعضها البعض. وهذا امر لا غرابة فيه. فالشرقيون المتهنون الكتابة عن

الشرق الذين نجحوا فيما كتبوا، قد قنعوا واكتفوا عادة بالتفاصيل السياسية لفتوحات المغول؛ فصوروا لنا جنكيزخان ضربا من القوة الوحشية المتجسمة، او كارثة انبعثت من الصحراء بين عهد وآخر لتقضي على المدنيات السالفة.

اما أساطير (صانانغ ـ سه‌ت‌زن) فلا تساعدنا على كشف غموض ذلك السر. فهي تقول لنا بلسان بسيط بان جنكيزخان كان (بوغ ـ دو) اى عطية الله لشعبه المختار. وبذلك بدلت لنا المعجزة، بالأساطير.

ويميل مؤرخو القرون الوسطى الاوروبيون، كما رأينا، الى الاعتقاد فى ان ضربا من المقدرة الشيطانية قد حلت فى المغول فانطلقوا وأغاروا على اوروبا.

ومما يغيظ المرء ان نرى المؤرخين العصريين يرددون ما رددته خرافات العصر الثالث عشر، وعلى الاخص خرافات اوروبا فى عصرها الثالث عشر التى لا تعتقد بقبائل جنكيزخان الا قبائل مغيرة موهومة ما كان لها ظل من الحقيقة، او الوجود.

هناك طريقة واحدة لالقاء النور على السر المكتنف بجنكيزخان؛ وذلك بارجاع عقرب الساعة الى الوراء الى سبعمائة عام للنظر الى جنكيزخان كما جاء ذكره فى تواريخ ايامه، لا ان ننظر الى المعجزة او الى القوة الوحشية المتجسمة، بل الى الرجل نفسه. وسوف لا نتعرض الى ما قام به المغول من الاعمال السياسية كقوم، بل سنمس ذلك الرجل الذى نهض بالمغول واوصلهم الى سيادة العالم وهم قبيلة لا شأن لها.

وللتعرف على هذا المرء علينا ان نقترب منه وهو بين رجاله، وعلى وجه الارض كما كانت قبل سبعة عصور. وليس لنا ان نقيسه بمقاييس المدنية العصرية. بل علينا ان نمحصه باعتبارات عالم قاحل يسكنه الصيادون والرحل المتطون الجياد العادون وراء الوعل والغزال.

فهناك يلبس الرجال جلود البهائم، ويتغذون بالحليب واللحم، ويدلكون ابدانهم بالشحم اتقاء البرد والرطوبة. وليس من النادر ان تراهم يموتون

جوعا او يجمدون من البرد القارص، او انهم يقتلون باسلحة غيرهم من الناس.

«لا بلدة ولا مدينة هنا . . .» هكذا يخبرنا الاخ الـ (كاربيني)، اول من زار تلك البلاد من الاوروبيين ثم يستمر ويقول «ولكن الواحات الرملية في كل حدب وصوب، وليس في واحد من مائة من الارض نبت الا حيث الانهار ترويها، والانهار نادرة.

«والبلاد خالية من الاشجار ولكنها غنية في مراعيها. فالامبراطور نفسه والامراء وغيرهم من الناس كلهم يتدفأون، ويطهون طعامهم بنار روث الخيل وجل البقر.

«والجو لا اعتدال فيه مطلقا، ففي اواسط الصيف تعصف العواصف وترعد السماء وتبرق، فتقتل الكثير من الناس، وتتساقط الثلوج في تلك الآونة ايضا، وتهب الرياح الشديدة الجارفة، وكثيرا ما تقلع الفرسان من ظهور جيادهم.

«وفي عاصفة من هذه العواصف اضطررنا الى الانبطاح على الارض والغبار الكثيف حال دون رؤيتنا. ويغلب تساقط البرد في تلك البلاد. كما ان الحر المفاجيء المحرق يعقب البرد القارص».

هذا ما كانت عليه بادية (كوبى) في عام ١١٦٢ ب. م. وهي سنة الحلوف، في تقويم الحيوانات الاثنى عشر.